مفهوم الكلام المفيد بين النحاة العرب وعلماء اللغة المحدثين

الدكتور
طالب عبد الرحمن
استاذ مساعد / قسم اللغة العربية
كلية الاداب – جامعة الموصل

تمهيد

معروف أن النحو يدرس الكلام المفيد ، ولذا يعد الكلام المفيد مبدأ الدرس النحوي ، ومنطلقه . وليس غريباً علينا تعريف النحو بأنه دراسة الكلام بمعناه النحوي لا اللغوي (١) .

يهدف هذا البحث الى دراسة تطور مفهوم الكلام المفيد عند النحاة العرب ، وتبيين جوانبه المختلفة ، وموازنة اراثهم بآراء الألسنيين المحدثين لمعرفة مدى الزيادة التي قدموها على ما ذكره نحاتنا . وقد تجنب البحث الخوض في أنواع الجمل العربية ، لئلا تتحول الدراسة الى دراسة تقابلية Contrastive Study توازن بين اللغة العربية واللغات الأخرى ، وإنما يعني البحث بموازنة بين الفكر النحوي العربي ، في هذه المسألة ، والفكر الالسني الحديث .

–١–
بين القول والكلام

يفرق النحاة العرب بين القول والكلام ، فالكلام « اسم للمفيد من القول عند النحويين » (٢) أما القول « فهو أعم منهما [أي : من الكلام

(١) ينظر الى : شرح ابن عقيل ١٤/١ .
(٢) المرتجل ٢٧ .

والكلم [لأنه عبارة عن جميع ماينطق به اللسان ، تاماً كان أو ناقصاً، والكلام والكلَم أخصّ منه . والذي قضى بذلك الاشتقاق مع السماع ، ألا ترى أن إشتقاق الكلام من الكَلْم ، وهو الجُرْح ، وأنه لشدة تأثيره ونفوذه في النفس كالجرح ، لأنه إن كان حسناً أثر سروراً في النفس ، وإن كان قبيحاً أثر حزناً ... وأما القول فهو من معنى الاسراع والخفة ، ولذلك قيل لكل مامذل به اللسان وأسرع اليه ــ تاماً كان أوناقصاً ــ : قول » (١) ولهذا شمل القول : الكلمة المفردة ، والمركب بلا فائدة ، والمركب المفيد ، ومن ثَمّ كان كلّ كلام قولاً ، وليس كلّ قول كلاماً (٢).

واذا كانت لغة النحاة المتأخرين جليةً واضحة في التفرقة بين القول والكلام ، فان سيبويه هو الذي بدأ هذه التفرقة ، منبّهاً على أنّ ما يأتي بعد الفعل «قال» ومشتقاته كلام ، إذ قال «واعلم أنّ «قلت» في كلام العرب إنما وقعت على أن يُحكى بها ، وإنّما تحكي بعد القول ما كان كلاماً ، لا قولاً ، نحو : قلت : زيد منطلق ، لأنّه يحسن أن تقول «زيد منطلق» ، ولا تُدخل «قلت» . وما لم يكن هكذا استغنت القول عنه . وتقول : قال زيد : إنّ عمراً خير الناس ، وتصديق ذلك قوله جل ثناؤه : «وإذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله اصطفاك» (٣) . ولولا ذلك لقال : أن الله» (٤) .

ويزيد ابن الخشاب (ت ٥٦٧هـ) كلام سيبويه وضوحاً بقوله «إن الجملة التامة التي قد عمل بعضها في بعض تقع بعد «قلت» محكية اللفظ ، فيكون موضعها نصباً بـ «قلت» ، كقولك : قلت : زيد قائم، وقلت : انطلق زيد ، وقلت : هل زيد منطلق؟ وقلت: قم يا زيدُ . كلّ هذه جمل محكية بعد «قلت» مستقلة بأنفسها في الفائدة ، وهي التي تسمى كلاماً» (٥) .

---

(١) شرح المفصل ٢١/١ والقسم الاخير من كلام ابن يعيش موجود في الخصائص ١٧/١-١٨.
(٢) الخصائص ١٧/١ ، شرح الكافية الشافيه ١٥٧/١ ، اوضح المسالك ١٣/١.
(٣) آل عمران /٤٢ .
(٤) الكتاب (هارون) ١٢٢/١ (وفي طبعة بولاق ٦٢/١ شيء من الأختلاف عن طبعة هارون).
(٥) المرتجل ٢٧ ، وينظر ايضاً الى : شرح التسهيل ٤/١ .

النطق

اذا ما تركنا موضوع الفرق بين القول والكلام ، فان الشرط الاول الذي تواجهنا به كتب النحو لعدّ الكلام «كلاماً» هو ان يكون منطوقاً ، او مسموعاً وربما كان «الصاحبي» لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) هو اول من نص على هذا الشرط صراحة ، لا ضمناً (١) ، ناقلاً ذلك عن «قوم» إذ قال «زعم قوم أنّ الكلام ما سُمع وفُهم ، وذلك قولنا : قام زيد ، وذهب عمرو . وقال قوم : الكلام حروف مؤلفة دالة على معنى. والقولان عندنا متقاربان ، لان المسموع المفهوم لا يكاد يكون الا بحروف مؤلفة تدل على معنى» (٢)

ويزيد علي بن سليمان الحيدرة (ت ٥٩٩هـ) الامر وضوحاً عندما يفرق بين المسموع غير المفيد ، والمفيد غير المسموع ، حينما قال ، بعد ان عرف الكلام بانه «المسموع المفيد» (٣) ، «وإنما شرطنا ان يكون مسموعاً مفيداً احترازاً من مسموع غير مفيد ، كأصوات البهائم وزجر الطير وصدى الجبال ونحو ذلك ، ومن مفيد غير مسموع كالاشارات والوساوس والخطرات ، لان ذلك وشبهه لا يسمى كلاماً» (٤) ونجد في شرح التسهيل» ذكراً للخط ايضاً ضمن المفيد غير المسموع فبعد تعريف ابن مالك للكلمة بقوله «لفظ مستقل دال بالوضع تحقيقاً او تقديراً او منوي معه ...» قال «فتصديره باللفظ مُخْرج للخط ونحوه مما هو كاللفظ في تأدية المعنى» (٥) ويؤكد ابن مالك هذه التفرقة ويفصّلها بعد ذلك بقوله إن الكلام «ليس خطاً ولا رمزاً ولا نحو ذلك ، وانما هو لفظ» (٦) . ويشرح الرضي تعريف ابن الحاجب للكلمة

---

(١) في الخصائص ١/ ١٧ - ٣٢ ان القول ما مذل به اللسان ،والكلام جزء من القول، وهذا ما يفهم منه ان الكلام هو المنطوق .
(٢) االصاحبي ٨١-٨٢ ، وينظر الى : المرتجل ٢٩ .
(٣) كشف المشكل في النحو ١/١٦٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ١/١٦٥-١٦٦ .
(٥) شرح التسهيل ١/١-٢ .
(٦) المصدر نفسه ١/٥

بأنها« لفظ وضع لمعنى مفرد (١) بقوله :واحترز بقوله«لفظ» من نحو الخط والعقد والنصبة والاشارة ، فانها ربما دلت بالوضع على معنى مفرد ، وليست بكلمات» (٢) . وبطبيعة الحال ، لا يمكن للباحث أن يفصل هذه النظرة إلى الكلام المفيد عن تعريف اللغة نفسها بانها «اصوات» يعبر بها كل قوم عن اغراضهم (٣) .

بيد أن كون الكلام منطوق هو الاصل ، لا ينفي تأدية الاساليب الاخرى للغرض نفسه ، اي التعبير . وجماع الامر هو ان اللفظة «جوهر الكلمة ؛ وان البقية اعراض» (٤) .

يمكن لنا أن نخلص ، مما سبق ذكره ؛ إلى أنّ النحاة العرب اعتدوا بالملفوظ المنطوق ، وجعلوه اساساً ؛ اما غيره من وسائل التعبير فعدوها اعراضا ؛ ولم يعدوها من الدرس النحوي . ولا بد ان نشير ايضاً إلى ان النحاة الذين رجعنا إلى كتبهم لم يعللّوا لهذا التمسك باللفظ مصدراً رئيساً للدراسة اللغة ؛ مع انهم اتفقوا على ان اللفظ ، او النطق ، اساس .

اما علم اللغة الحديث فيجعل اولوية المنطوق على غيره من سمات الدراسة الالسنية الحديثة ، وخصائصها . ويشير الالسنيون إلى الاسباب التي حدت بهم إلى اصطناع هذا الرأي ، وهي :

١ — إن الكلام اقدم واكثر انتشاراً من الكتابة ، ففي حين لا يتجاوز تاريخ الكتابة المعروفة عندنا سبعة الاف سنة ، لا يمكن لنا ان نتخيل المجتمعات التي عاشت قبل ذلك وهي فاقدة للقدرة على الكلام .

---

(١) شرح الرضي على الكافية ٢/١ .
(٢) المصدر نفسه ٤/١ ، وينظر ايضاً الى : ارتشاف الضرب ٤١٢/١ ، اوضح المسالك ١١/١ شرح التصريح ١٩/١-٢٠ ، شرح الأشموني ٨/١ ، حاشية الخضري ١٥/١١ ؛ وفي شرح الحدود لفاكهي (ص٣٨) تفصيل الجانب الصوتي للكلام .
(٣) الخصائص ٣٣/١ .
(٤) شرح المفصل ١٩/١ .

٢ – إن مئات اللغات المنطوقة لم تكتب الا مؤخراً ، في تاريخ لا يزيد على عشرات السنين ، وهناك لغات ما زالت غير مكتوبة لحد الآن .

٣ – إن نظم الكتابة جميعها قائمة على اساس اللغة المنطوقة (بحيث يتوجب علينا احياناً الرجوع إلى كيفية النطق القديم لتفسير ظاهرة كتابية حالية) . فاللغة المنطوقة هي الاصل ، والكتابة مستمدة منها .

٤ – ان على عالم الاصوات ان يدرس اصوات اللغة ، ومقاطعها ، وكلماتها ، في حين نجد النظام الكتابي إمّا مقتصراً على الاصوات (النظام الالفبائي) واما على المقاطع (النظام المقطعي) واما على الكلمات (النظام الصُوري ideographic) ومن ثم كان النظام الكتابي قاصراً عن تمثيل اللغة ، صوتياً ، تمثيلاً كاملاً .

٥ – إن النظام الكتابي لا يساعدنا في كثير من الاحيان على تمييز نطق الكلمات فهناك كلمات تُكتب على نحو مختلف ، ولكنها تُنطق نطقاً متماثلاً (وهو ما يصطلح على تسميته بالمماثل الصوتي Homophone) (مثل الكلمات (great, grate) و (seen,scene) و (meet, meat) . وعلى العكس من ذلك نجد كلمات تُرسم على نحو متماثل ، ولكنها تنطق نطقاً مختلفاً (وهو ما يصطلح على تسميته بالمماثل الكتابي Homograph) مثل lead التي تلفظ بامالة الياء وعدم امالتها ، وكذلك read

٦ – إن النظام الكتابي للغة لا يحوي التنوعات المهمة في اللغة المنطوقة ، مثل طبقة الصوت pitch والنبر stress ، والتنغيم intonation ... الخ وإنْ حاولت النظم الكتابية ان تعوض بعضاً من ذلك باستخدام علامات التعجب والإستفهام ... الخ .

٧ – إن النظام الكتابي يحقق عملية اتصال غير مباشر بين الكاتب والقارىء ،

ومن ثم تضيع على القارىء رموز مثل تعابير وجه المتكلم ، واشارات يده في اثناء التكلم ... الخ (١) .

-٣-

الاسناد

مرّ بنا ، في الفقرة السابقة ، اشتراط كون الكلام منطوقاً كيما يكون مفيداً . ولا ريب في ان المنطوق مؤلف من كلمات مستعملة ، غير مهملة . على ان هذا الشرط ، كما يقول اهل الفلسفة ، ضروري بيد أنه غير كاف لجعل ما يصدر «كلاماً» بالمعنى الاصطلاحي للفظ ، ولذا لابد من وجود شروط اخرى ليكون المنطوق كلاماً مفيداً . وستناول هذه الفقرة شرط الاسناد ، إذ إنّه — كما يقول سيبويه — مما «لا يجد المتكلم فيه بداً ، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه ، وهو قولك : عبدالله اخوك ، وهذا اخوك ،

---

(١) هناك تفصيلات اخرى عن الفروق بين اللفظ والكتابة ، وخاصة الفروق المعجمية lexical والنحوية مما لايدخل في صلب هذا البحث . لغرض التوسع ينظر الى

J. Lyons, (1977) Introduction to Theoretical Linguistics, Cambridge University Press, PP. 38-42.

Robert A. Hall Jr., (1964): Introductory Linguistics, Chilton Books PP. 8-9

Jean Aitchison, (1978): Linguistics, Hodder and Stoughton, P. 14.

J.F. Wallwork, (1973), Language and Linguistics, Heinemann Educational Books, PP. 14-22.

ومما هو قمين بالاشارة الموجزة اليه في هذا البحث ، مع انه غير داخل في صلب مادتنا هو ربط النحاة العرب بين المنطوق من جهة ، والعقد والاشارة والنصبة من جهة أخرى ، في كون الاثنين من الدوال . (ينظر مثلا : شرح المفصل ١/١٩ ، كشف المشكل ١/١٦ الهمع ١/٢٢ حاشية الخضري ١/١١٥) وما اقرب هذا الكلام الى السيمياتية semiotics التي عرفت بانها «الدراسة المنهجية للعلامات (او الاشارات) Signs. اللغوية وغير اللغوية» ينظر الى

R.R.K. Hartmann and F.C. Stock: Dictionary of Language and Linguistics, P. 205

ومثل ذلك : يذهب عبدالله» (١).ولذا لا يعد من الكلام ما افتقر إلى الاسناد، كقولنا : قد زيداً رأيت (٢) .

ويعرّف ابن يعيش تركيب الاسناد بانه « تركيب الكلمة مع الكلمة اذا كان لاحداهما تعلق بالاخرى على السبيل الذي به يحسن موقع الخبر وتمام الفائدة... والاسناد يشمل الخبر وغيره من الامر والنهي والاستفهام ، فكل خبر مسند، وليس كل مسند خبراً ، وإن كان مرجع الجميع إلى الخبر من جهة المعنى ، الا ترى ان معنى قولنا قُم : اطلب القيام ،وكذلك الاستفهام والنهي » (٣) .

وقد زيد على شرط الاسناد ان يكون ذلك الاسناد على سبيل الاستقلال ، او مقصوداً لذاته،لا لغيره. ويقصد بالمقصود لغيره «اسناد الجملة الموصول بها،والمضاف اليها ، فانه اسناد ، ولم يُقصد هو ، ولا ما تضمنه ، لذاته بل قُصد لغيره ، فليس [هذا] كلاماً ، بل هو جزء كلام ، وذلك نحو : قاموا ، من قولك : رأيت الذين قاموا ، وقمت حين قاموا» (٤) . ولهذا فُرّق بين الجملة والكلام ، فالاولى «ما تضمن الاسناد الاصلي ، سواء كانت مقصودة لذاتها او لا ، كالجملة التي هي خبر المبتدأ ... والكلام ما تضمن الاسناد الاصلي وكان مقصوداً لذاته ، فكل كلام جملة ، ولا ينعكس» (٥). وقد أُخذ على الزمخشري توحيده بين الكلام والجملة(٦) اذ ردّ عليه ابن هشام بأن الكلام والجملة «ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس ، وهو ظاهر

(١) الكتاب (هارون) ٢٣/١
(٢) المصدر نفسه ٢٦/١
(٣) شرح المفصل ٢٠/١ . وقد يجدر بنا ان نشير الى ان قول ابن يعيش ان « مرجع الجميع ، الى الخبر من جهة المعنى » هو خلاصة ماجاء به تشومسكي وسمى الجملة التقريرية الخبرية بالجملة الاساسية kernel sentence
(٤) شرح التسهيل ٦/١ ، وينظر الى ، شرح الرضي ٨/١ ، الارتشاف ٤١١/١ ، الهمع ١١/١ ، شرح الاشموني ٨/١ ، وينظر الى مناقشة الخضري لابن مالك في حاشية الخضري ١٤/١ - ١٥ .
(٥) شرح الرضي ٨/١
(٦) المفصل ٤ ، والواقع ان ابن جني سبقه الى ذلك ،ينظر الى : الخصائص ٣٢/١ .

قول صاحب «المفصل» فانه بعد ان فرغ من حد الكلام قال «ويسمى جملة» والصواب انها اعم منه، اذ شرطه الافادة ، بخلافها ، ولذا تسمعهم يقولون: جملة الشرط ، جملة الجواب ، جملة الصلة ، وكل ذلك ليس مفيداً ، فليس بكلام» (١) .

وجاء في نص الزمخشري ان الكلام « هو المركب من كلمتين » (٢) غير ان معظم النحاة نصوا في تعريفهم للكلام على انه لفظ مركب ، وجوداً او نية . ، كقولك : قم ، واقعد ومايلحق بهذين من الاشارة والكناية ، او الالفاظ المفردة كـ « نَعَم» و « بلى» (٣) وما سمي هنا نية سمي أيضاً تقديراً (٤) او منوياً معه (٥) (اي مع اللفظ) او موجوداً بالقوة (٦) .

وغني عن القول ان ماخرج عن المسند والمسند اليه هو الفضلة .

ولو نظرنا الى علم اللغة الحديث لوجدنا البنيويين خاصة ينظرون الى الاطار الهيكلي او الشكلي العام للجملة ، فيقسمونها الى مايسمونه بالمكونات الاولية (٧) Immediate constituents يقول هـ . أ . غليسون H·A·Cleason في شرحه لهذا التحليل بان المكون الأولي هو « واحد من مكونين او مكونات قليلة ، يتألف منها أي تركيب » (٨) .

---

(١) المغني ٢/٣٧٤

(٢) المفصل ٤

(٣) التوطئة ١١٢

(٤) المقرب ١/٤٥ ، الارتشاف ١/٤١٢ ، شرح شذور الذهب ١١ ؛ شرح الأشموني ١/٨ وفي شرح الرضي (١/ ٧ – ٨) : مقدراً

(٥) شرح التسهيل ١/٣ ، شرح الكافية الشافية ١/١٥٨

(٦) شرح ابن الناظم ٤ ، شرح اللمحة ١/٢٠٨ ، شرح التصريح ١/٢٤

(٧) يميل الباحث الى تفضيل هذه الترجمة على ترجمتها الى المكونات المباشرة (راجع : معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ٣٧ ، معجم علم اللغة النظري ١٢٤ ، ١٢٦) لأن مايقابل المكونات الاولية هو المكونات النهائية ultimate constituents

(8) H.A. Gleason (1975)An Introduction to Descriptive Linguistics, P. 133.

ولكي تتضح صورة هذا التحليل اكثر ، نأخذ من الكتاب المذكور مثالا ونرى كيف يحلله : The three men read the new books:

فهو يعامل هذه الجملة على انها مكونة من مكونين اوليين ، وطريقته في ذلك هي محاولة الاستعاضة (قدر الامكان) عن مجموعة كلمات بكلمة واحدة (وهو مايشبه عند النحاة العرب باعراب الجمل) وهكذا تنتهي الجملة السابقة الى مايأتي The three men read the new books:
they read

فحلت كلمة they محل the three men ، وحلت كلمة read محل read the new books ولذا فان الجملة السابقة مؤلفة من مكونين اوليين اولهما هو (the three men) وثانيهما هو : (read the books) (1) . ولو ترجمنا هذه الجملة الى العربية فستكون ترجمتها على النحو الاتي : الرجال الثلاثة قرأوا الكتب الجديدة وسيكون «الرجال» هو المسند اليه ، و « قرأوا» هو المسند .

وبالرغم من ان التحليل البنيوي ، وخاصة في الفرع الامريكي بدءاً من بلومفيلد ، حاول تجنب ادخال المعنى في التحليل (لاسباب فلسفية ومنهجية لامجال لذكرها) الا أنه لم يستطع تجنب المعنى في هذا النمط من التحليل ، فاشار الى وجود علاقة دلالية بين المسند اليه topic والمسند comment (وقد سمت مدرسة براغ Prague school البنيوية ايضاً المسند اليه theme والمسند rheme (2) على اساس ان المسند اليه هو مايقوله المتكلم والخبر هو الشيء الذي يقوله عن ذلك المسند اليه ، وهكذا فان جملة John | ran away

---

(١) المرجع نفسه ، ص١٤٤

(٢) فيما يخص مدرسة براغ ينظر كتاب D.J: Allerton
Essentials of Grammatical Theory
ص ٢٧٣ وما بعدها .

تتضمن المسند اليه (John)، الذي هو المبتدأ عادة في اللغة الانكليزية وتخبر عنه بالمسند وهو (ran away) ، أي هرب ، ويكون المسند هو الخبر عادة في اللغة الانكيزية) (١) .

ويزيد بعض الالسنيين الجانب الدلالي تفصيلا فيميزون امرين ، الاول : هو المعروف given والثاني : هو الجديد : new ، ولتوضيح هذه التفرقة نشير الى ان بعض الالسنيين يرى ان الموضوع المعروف (وهو المسند اليه)غالباً مايكون معروفاً عند المتكلم والسامع (ولذا يشار اليه بالضمير احيانا في حالة كون الضمير مسنداً اليه، لان المتكلم والسامع كليهما على معرفة به) في حين ان مالا يعرفه السامع هو المسند، ولذا يعد جديداً . ووفقاً لهذا التحليل ينظر الى الجملة الاتية .

He/ has run a 3½ minutes mile

على ان (He) ، الذي هو المسند اليه ، معروف عند المتكلم والسامع ،اما بقية الكلام فيفترض المتكلم ان السامع يجهلها ومن ثم تعد جديدة وتستخدم الانكليزية الضمائر ،مثلا، للتعبير عما هو معروف، والنبر stress للتعبير عما هو جديد (٢) .

والواقع هو ان فلسفة المسند عند النحاة العرب هي في الاخبار ، ويكفي ان نستشهد بابن مالك في كلامه عن الخبر — مثلا . بقوله :

والخبر الجزء المتمم الفائدة (٣)

غير ان هذا يبعدنا عن موضوع البحث ، وهو « مفهوم» الكلام المفيد ، ويقودنا الى التقديم والتأخير في الجملة العربية . ولذا نكتفي بهذا القدر في هذه المسألة ..

ص ٢٠١ وما بعدها

(1) Charles F. Hocket, (1967,) A.Course in Modern Linguistics,

(٢) ينظر كتاب Allertom المذكور ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤

(٣) شرح ابن عقيل ٢٠١/١

وقد ميز الالسنيون المحدثون ماعدّه النحاة العرب عمدة مما عدوه فضلة، وقد اصطلح الالسنيون على تسمية الفضلة بـ (complement) و(adjunct) (١) .

فضلا عما سبق ، أدرك معظم الالسنيين المحدثين ضرورة تقدير وجود كلمة او اكثر في الكلام ، وقد اصطلح على تسمية المقدر بـ understood وسماه تشومسكي بالعنصر الوهمي dummy element وقد ذهب تشومسكي. الى ان البنية العميقة deep Struture للجملة قد تتطلب افتراض وجود عنصر نحوي في البنية السطحية surface structure .وبعبارة أخرى : ان المعنى (اي : البنية العميقة) قد يتطلب افتراض وجود كلمة او اكثر)مفقودة في الكلام المنطوق او المكتوب (أي : البنية السطحية) . ففي جملة مثل

Come and see me tomorrow

نفترض وجود you (٢) ، و هو في هذه الحالة الضمير المستتر الذي يقدره النحاة بـ«أنت» في قولنا : تعال.

بيد ان التقدير لم يسلم من يعارضه من البنيويين خاصة (الذين ينأون عن التقديرات اذ عدوا منهج التقدير من اخطاء النحو التقليدي(كما يسمونه)ورأوا فيه خطراً عندما يدرس الالسني لغة اجنبية دراسة ميدانية . فقد يؤدي افتقار الالسني الى المعرفة العميقة باسرار اللغة المدروسة الى ان يقدر وجود عناصر فيها كي تساير لغته الام .

فعلى سبيل المثال ،قد يتوهم الانكليزي الدارس للعربية ان في جملة مثل: علي مجتهد ،عنصراً مقدراً هو is .وهو العنصر الذي لابد من وجوده في اللغة الانكليزية في جملة كتلك.علاوة على ذلك ،قد يكون التقدير اعتباطيا وغير مسوّغ في كثير من الاحيان (٣) .

(1) Hartmann and Stock, op. cit., P. 5, 44.

(2) Emmon Bach (1964) An Introduction to Transformational Grammars, P. 80. ص٧٣ (stock),(Hartmann) وينظر ايضا كتاب

(3) Gleason, op. cit., PP. 192–193

—٤—

القصد

اشترط النحاة العرب « القصد» فيما يقوله القائل كي يكون قوله كلاماً. واذا مااردنا ان نفهم معنى القصد ,فما علينا الأن نفهم مايراد بانعدامه ،اذ يقول ابن مالك في شرح التسهيل ان خطأ الانسان في الكلام لايؤاخذ به ؛ ولايعد الخطأ كلاما ،ولذلك لم يعتد بقول الذي غلبه الفرح فقال مخطئا : اللهم انت عبدي وانا ربك... فأن أطلق على الخطأ كلام فعلى سبيل المجاز(١).

ويدخل ضمن مفهوم القصد ايضاً ما يسميه المعاصرون الوعي ايضاً ،فلا يشمل الكلام حديث النائم ومحاكاة بعض الطيور الكلام»(٢)وحديث الساهي(٣) والسكران (٤) وجاء في الهمع « وشرطنا وقوع ذلك (٥) ممن اتضح منه ،او من قبيله الافادة ، لئلا يلزم عليه ان يكون مايسمع من بعض الطيور ، كلاما وقولنا : القبيل دون الشخص ، لان مايسمع من المجنون يوصف بانه كلام وان لم تصح منه الفائدة وهو بحاله ، لكنها تصح من قبيله ، وليس كذلك . الطائر (٦).

هذه التفرقة ، عند النحاة العرب ، بين الكلام المقصود وغير المقصود . تهدف — في رأينا — الى عد اللغة المثالية الخالية من الخطأ ، دون غيرها موضوعاً للدراسة النحوية .

وقد أدى تحري المثالية بالالسنيين المحدثين الى التفرقة بين اللغة langue والكلام

---

(١) شرح التسهيل ٥/١

(٢) المصدر نفسه ٦/١

(٣) حاشية الخضري ١/ ١٤

(٤) شرح الحدود للفاكهي ٣٢ و ينظر شرح جمل الزجاجي ٨٧/١ .

(٥) اي : الكلام

(٦) الهمع ١١/١ وينظر الى شرح الأشموني ٨/١ ، حاشية الخضري ١٥/١ ، وفي انهمع (١٠/١) : ولم يشترط القصد ابو حيان ، واشترطه ابن مالك وخلائق (راجع رأي ابي حيان في الارتشاف ٤١٢/١)

parole (عند دي سوسير) (١) او القدرة Competence والاداء performance عند تشومسكي .. فالمصطلح الاول (اي اللغة او القدرة) يمثل نظام اللغة الموجود في الذهن ، في حين يمثل الثاني ماينطقه الفرد فعلا ، حيث يعنى الالسني بدراسة الاول ، لان الفرد في الحالة الثانية معرّض للخطأ ، بسبب السهو ، او النسيان ، او التلعثم او الأضطراب... (٢) علاوة على الجانب الالسني الذي لحظناه عند النحاة العرب في مسألة القصد ،لابد ان نشير ايضاً الى جانب فلسفي ـ السني يخص عد اللغة لغة اصلا ،وكون اللغة ظاهرة انسانية ، وعدم استخدام غير بني البشر للغة (٣) .

اما محاكاة بعض الطيور للانسان في كلامه فلم يجعله النحاة العرب لغة لخلوه من النية او القصد كما سموه . يقول جوستوس هارتناك في كتابه «اللغة والفلسفة» ماخلاصته : لو وعد الببغاء بالقاء محاضرة ، فان « وعده» هذا ليس وعداً » اصلا ، لان « مفهوم » الوعد او « الوعي» بمفهوم الوعد غير موجود عنده ، ومن ثم لايسمى ماينطق به الببغاء عملا لغوياً ، بل هو عمل صوتي (٤) Phonetic act .

اما زلات اللسان فقد صنفها الالسنيون الى زلات صوتية ، وتركيبية ،ودلالية واخضعوها للدراسة ، فلاحظوا ـ مثلا ـ ان الخطأ الدلالي غالبا مايؤدي الى حلول كلمة تقع ضمن نفس الميدان الدلالي semantic field للكلمة الصحيحة ، كأن يقول المتكلم رأيت بأذني (بدلا من بعيني) حيث تقع الأذن

---

(١) علم اللغة العام ٢٦-٢٩

(2) Victoria Fromkin, Robert Rodman (1978) An Introduction to language , PP. 6–9.
John Lyons, (1981) Language and Linguistics, PP. 8–11, 233–235

(3) John Lyons, op. cit., P. 3.

(4) Hartnack (1976) Language and Philosophy ص ١٤ ومابعدها

والعين في ميدان دلالي واحد هو اجزاء الوجه (١) . فضلا عن اخضاع تلك الزلات للدراسة النفسية (٢) .

والظاهر ان النحاة العرب اشترطوا عدم السهو ، او السكر ، كي يضمنوا صحة كلام المتكلم وكيلا يبنى الحكم النحوي على نص فاسد. اما فيما عدا ذلك، فلا اظن ان هناك مايتطلب هذا الشرط ، ولم اجد من الالسنيين من اشترطه .

— ٥ —

الاستقامة الدلالية

قد يكون الكلام صحيحاً نحوياً ، غير مستقيم دلاليا . وقد عرض سيبويه لهذه المسألة بالتفصيل . فقال في « باب الاستقامة من الكلام والأحالة » : فمنه مستقيم حسن ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وماهو محال كذب. فاما المستقيم الحسن فقولك : اتيتك امس ، وسآتيك غداً ، واما المحال فان تنقض اول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غداً ، وسأتيك امس ، واما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر ، ونحوه ، واما المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في غير موضعه : نحو قولك : قد زيداً رأيت وكي زيد يأتيك ، واشباه هذا . واما المحال الكذب فان تقول : سوف اشرب ماء البحر امس » (٣) . ولابد ههنا من الاشارة الى امرين .

اولهما : ان النحاة الذين عرضوا لهذه المسألة فهموا من كلام سيبويه انه يعد الجمل غير المستقيمة دلاليا كلاما ، ولم يزيدوا على كلامه شيئا . (٤)

ثانيهما : ان النحاة العرب اغفلوا تناول هذه المسألة في المصادر التي رجعنا اليها باستثناء ابن مالك وابي حيان ، والسيد ياسين في حاشيته على التصريح ، (٥)

---

(1) Fromkin and Rodman, op. cit. p. 8–9, 147–148, 157, 165–166.

(2) Jean Aitchison (1979), The Articulate Mammal, Hutchinson of London, P. 208. ff

(٣) الكتاب ١/٨ (بولاق) ١/٢٥ — ٢٦ .

(٤) شرح التسهيل ١/٥ ، الارتشاف ١/٤١٢ ، حاشية السيد ياسين ١/٢١ .

(٥) راجع المصادر المذكورة في هامش (٤) .

مع ان سيبويه قد فصّل فيها ،وكان متوقعاً ان يتناولها النحاة من بعده بالدرس والتمحيص (١) .

يتناول الدلاليون من اللسنيين هذه المسألة بالتفصيل ، مبينين انواع الشذوذ anomaly او الأنحراف deviation ، ويقسمونه الى درجات ، من مثل : قد زيداً رأيت حيث تكون الكلمات صحيحة مع خلل في الترتيب (مع وجود مرتبة اكثر في الشذوذ وهي انعدام الرابط بين الكلمات دلاليا ونحويا مثل (فرس ، بحر ، ال) مروراً بجمل صحيحة نحويا ، خاطئة دلاليا ، كمثال تشومسكي المشهور «الافكار الخضر العديمة اللون نامت بغضب » والجملة الصحيحة نحوياً ولكنها تخالف الحقيقة ، مثل الايطاليون يتكلمون اللغة التركية ... الخ (٢). مما يدخل في علم الدلالة semantics لا علم النحو syntax

—٦—

حسن السكوت

اشار النحاة الى ان من شروط الكلام المفيد ان يحسن السكوت عليه (٣).

وقد فصلت بعض المصادر هذه المسألة ، فقال في الهمع ، والمراد بالمفيد : مايفهم معنى يحسن السكوت عليه . وهل المراد سكوت المتكلم او السامع او هما ؟ اقوال ، ارجحها الاول ، لانه خلاف التكلم ، فكما ان التكلم صفة المتكلم كذلك السكوت صفته ايضاً . والمراد بـ« حسن السكوت عليه » ان لايكون

---

(١) اشار الى هذه المسألة ، بألفاظها عند سيبويه ، ابن سنان الخفاجي من البلاغيين ، ينظر الى: سر الفصاحة ١٩٩

(٢) للتفصيل في انواع الشذوذ ، ينظر الى

Don L.F. Nilson, and Allen pace Nilson (1975): Semantic Theory A Linguistic Perspective, PP. 38–47.

(٣) ينظر مثلا الى : شرح شذور الذهب ٣٥ ، واوضح المسالك ١١/١ ، وشرح ابن عقيل ١٤/١ ، والمصادر في الهامش الاتي

محتاجا في افادته للسامع كأحتياج المحكوم عليه الى المحكوم به او عكسه ، فلا يضره احتياجه الى المتعلقات من المفاعيل ونحوها (١) .

وقد نبه سيبويه الى اقتران السكوت عند المتكلم بنهاية كلامه وايفائه الغرض منه . قال في « باب ماينتصب فيه الخبر لانه خبر لمعروف يرتفع على الابتداء قدمته او أخرته» وذلك قولك : فيها عبدالله قائما ، وعبدالله فيها قائما فعبدُالله ارتفع لابتداء ، لأن الذي ذكر قبله وبعده ليس به وانما هو موضع له ، ولكنه يجري مجرى الاسم المبني على ماقبله ، الاترى انك لوقلت :فيها عبدُالله ، حسُن السكوتُ وكان كلاما مستقيما كما حسن واستغني في قولك هذا عبدُالله (٢) « وقال ايضا « فرب اسم لايحسن عليه عندهم السكوت حتى يصفوه وحتى يصير وصفه عندهم كأنه به يتم الاسم » (٣) .

ولو تأملنا كلام المحدثين من الالسنيين لما وجدنا زيادة ذات بأل في هذا الخصوص ، فيقول هارس . Z.S.Harris استاذ تشومسكي ، معرفا الكلام المفيد بانه جزء من حديث يقوله شخص ، يسبقه ويليه سكوت من جانب الشخص » (٤) وفي معجم اللغة وعلم اللغة ان الكلام المفيد utterance هو جزء من كلام بين فترتين من الصمت او امكان الصمت ، وعلامته marked في نهاية [الكلام المفيد] هي صعود او هبوط الوقف juncture النهائي (٥) والملاحظ ان النصين اشار الى السكوت قبل الكلام ، علاوة على السكوت بعده وهو مما لم يشر اليه نحاتنا .

والأمر الاخر الذي اشار اليه مؤلفا « معجم اللغة وعلم اللغة » هو الربط

---

(١) همع الهوامع ١٠/١ ، وينظر الى شرح الحدود للفاكهي ٣٩ ، حاشية الخضري ١٤/١ . و في شرح الحدود للفاكهي (٣١ – ٣٢) ان جماعة من النحاة ، منهم ابن هشام في القطر واوضح المسالك اسقطوا شرط « المقصود لذاته» المذكور في الفقرة الثالثة لأن حسن السكوت يستلزم ذلك ، اذ حسن سكوت المتكلم يستدعي ان يكون قاصداً بما تكلم به ».

(٢) الكتاب ٢٦١/١ (بولاق)

(٣) المصدر نفسه ٢٦٩/١ وينظر ٢٨٣/١ ، ٣٤٧ .

(4) Z.S. Harris (1951) Methods, in Structural Linguistics, P. 14.

(5) Hartmann and Stork, op. cit. P. 246

بين الوقف ونهاية الكلام . وهذا مالم يذكره النحاة في تعريفهم للكلام المفيد ، وان كان جزءاً من دراستهم للوقف .

اما السكوت الاول الذي يسبق الكلام المفيد عند الالسنيين المعاصرين فهو في واقع الحال هو نفسه السكوت الذي ينتهي به الكلام ، ليكون سابقا لكلام مقيد بعده .

• • •

بقي ان نشير الى ان النحاة العرب ، وخاصة المتأخرين منهم ، تناولوا مسألتين جدليتين مما لافائدة فيهما ،

الاولى : هل يعد اتحاد الناطق بالكلام شرطا من شروط الكلام المفيد ، ام يجوز ان ينطق شخص بالمسند اليه — مثلا — وينطق ثان بالمسند ؟ (١) .

الثانية : هل يشترط في الكلام المفيد ان يكون « مفيداً ، بمعنى انه يقدم لسامعه معلومات جديدة غير معروفة ؟ ومن ثم لا يُعدّ كلام مثل «النار حارة» و «السماء فوقنا» كلاما مفيداً ، لأنه يدل على بديهيات (٢) .

النتائج

يمكن ان نخلص من البحث السالف الى نتائج اهمها ان النحاة العرب فرقوا بين القول ، الذي يشمل كل ما ينطق به اللسان ، والكلام . وان هذا الأخير يشترط فيه ان يكون منطوقاً ، غير ان النحاة لم يعللوا لهذا الشرط ، في حين قدم الالسنيون المحدثون اسبابا كثيرة لتفضيلهم المنطوق على غيره ، كالمكتوب مثلا . علاوة على هذا يشترط في المنطوق الاسناد وعدم الشذوذ الدلالي — على الاصح — وقد تبنى الالسنيون المحدثون هذا المعيار ، وان ركز متأخروهم

(١) شرح التسهيل ٦/١ ، الارتشاف ٤١٢/١ ، الهمع ١٠/١
(٢) شرح التسهيل ٦/١ شرح الكافية الشافيه ١٥٨/١ ، الارتشاف ٤١٢/١ حاشية الخضري ١٥/١

على عنصر الجدّة في المعلومات التي يقدمها المسند . ويلاحظ ان المتأخرين من الالسنيين ، مثل المدرسة التوليدية التحويلية ، تؤيد النحاة العرب في افتراض وجود عناصر مقدرة غير ملفوظة ، في حين ان البنيويين يميلون الى تجنب ذلك . وقد اشترط النحاة العرب عنصر الوعي والقصد في الكلام ، واذا كان الالسنيون يؤيدون الاول ، فانهم لايشترطون الثاني ويتفق النحاة مع الالسنيين في ان حسن السكوت على الكلام من أدلة كونه مفيداً .

وقد تناول نحاة قليلون مسألتين جدليتين بالبحث ، وهما اشتراط اتحاد الناطق ام عدم اشتراط ذلك ، ومعنى «الافادة» وفيما اذا كانت تقتصر على اعطاء معلومات غير بديهية .

والنتيجة النهائية التي يستطيع البحث ان يخرج بها هي ان علم اللغة الحديث لم يقدم الكثير الى ماذكر والنحاة في هذه المسألة ، وان اكثر ماذكره الالسنيون هو اعادة صياغة لمفاهيم قديمة بمصطلحات حديثة مع محاولة تعليل ذلك .

• • •

مراجع البحث

آ ـ العربية :

ـ القرآن الكريم

ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب ، ابوحيان الاندلسي ، تح د.مصطفى النحاس ، ٣ج ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٨٧ .

ـ اوضح المسالك الى الفية ابن مالك ، ابن هشام الأنصاري ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ٤ج ، ط٥ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٦٧ .

ـ التوطئة ، ابوعلي الشلوبيني ، تحقيق يوسف احمد المطوع ، دار التراث العربي ، القاهرة ١٩٧٣ .

ـ حاشية الخضري علي ابن عقيل ، محمد الخضري ، ٢ج ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ت

ـ الخصائص ، ابوالفتح عثمان بن جني ، تح د. محمد علي النجار ، ٣ج ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ .

ـ سر الفصاحة ، ابومحمد بن عبدالله بن سنان الخفاجي ، تح .عبدالمتعال الصعيدي ، القاهرة ١٩٦٩

ـ شرح ابن عقيل ، بهاءالدين عبدالله بن عقيل ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ٢ج ، ط١٤ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٦٤ .

ـ شرح الاشموني على الفية ابن مالك ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ٣ج ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٥٥ .

ـ شرح الفية ابن مالك ، بدرالدين محمد بن محمد بن مالك ، مطبعة القديس جاورجيوس ، بيروت ١٣١٢ .

ـ شرح التسهيل ، ابن مالك ، تح د.عبدالرحمن السيد ، ج١ ، ط١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤ .

ـشرح التصريح على التوضيح ، الشيخ خالد الازهري ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ٢ج ، د.ت .
ـ شرح جمل الزجاجي ، ابن عصفور الاشبيلي تح د. صاحب جعفر ابي جناح ، مطبعة جامعة الموصل ، ط١ ، ٢ج ، ١٩٨٠ .
ـ شرح الحدود النحوية ، عبدالله بن احمد الفاكهي ، تح. د. زكي فهمي الالوسي ، بغداد ١٩٨٨ .
ـ شرح الرضي علي الكافية ، رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي ؛ ٢.ج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.
ـ شرح شذور الذهب ، جبال الدين بن يوسف بن هشام الانصاري تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط١١ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٨ .
ـ شرح الكافية الشافية ، جمال الدين محمد بن مالك ، تحقيق د. عبدالمنعم احمد هريدي ، ط١ ، ٥ج ، جامعة ام القرى ، مكة المكرمة ١٩٨٢ .
ـ شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية ، لابن هشام الانصاري ، تح د. هادي نهر ، ٢ج ، بغداد ١٩٧٧ .
ـ شرح المفصل ، محيي الدين يعيش بن علي بن يعيش ١٠ج ، ادارة الطباعة المنيرية ، د.ت .
ـ الصاحبي في فقه اللغة ، ابوالحسين احمد بن فارس ، تح مصطفى الشويحي مؤسسة آ.بدران ، بيروت ، ١٩٦٤ .
ـ الكتاب ، سيبويه ، ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر
آ.طبعة بولاق ، ٢ج (١٨٩٨ ـ ١٩٠٠) .
ب. بتحقيق عبدالسلام هارون ، ٥ج ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ .

- كشف المشكل في النحو ، علي بن سليمان الحيدرة اليمني ، تح د.هادي عطية مطر ، ٢ج ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٨٤ .
- المرتجل ، ابومحمد عبدالله بن احمد بن الخشاب ، تح علي حيدر ، دار الحكمة ، دمشق ١٩٧٢ .
- المقرب ، ابن عصفور الأشبيلي ، تح د. أحمد عبد الستار الجوادي ، وعبدالله الجبوري ، ٢ج ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧١ .
- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ، إبن هشام الانصاري ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ٢ج ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د. ت .
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي ، ٢ج ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

ب - الانكليزية :

- Allerton, D.J. (1979) Essentials of Grammatical Theory , Routledge and Kegan Paul, London and Boston.
- Bach, Emmon (1964) An Introduction to Transformational Grammar, Holt, New York-London.
- Fromkin, victoria and Rodman, Robert (1978) An Introduction to Language, Holt, New York.
- Gleason, H.A. (1975) An Introduction to Descriptive Linguistics, Holt New York-London.
- Hall, Robert A.Jr (1964) Introductory Linguistics, chilton Books
- Harris, Z.S. (1951) Methods in structural Linguistics, University of Chicago Press.
- Hartmann, R.R.K. and Storck, F.C. (1976) Dictionary of Language and Linguistics, Applied Science Publishers, London.
- Hartnack, J. (1972) Language and Philosophy , Mortton, the Hague.
- Hocket, Charles F. (1967) A Course in Modern Linguistics,Macmillan New York.

- Lyons, John (1977) **Introduction to Theoretical Linguistics**, C.U.P.
- Lyons, John (1981) **Language and Linguistics**, C.U.P.
- Nilso, Don L.F. and Nilson, Allen Pace, (1975) **Semantic Theory: A** Linguistic Perspective, Newbury House Publishers

Wall work, J.F. (1978) Language and Linguistics, Heinemann Educational Books